الندوة الدولية لحوار الحضارات في عاصمة الرشيد [1 .2]

أركيولوجيا ثقافية ومعرفية في المشهد السياسي المعاصر وحوار مع مكوناته ومع الذات أولاً

بعض المشاركين في الندوة (القدس العربي)

الرقة ـ «القدس العربي»

ـ من أنور بدر:

تقع مدينة «الرقة» شمال شرق سورية، وفي عمق البادية التي اخترقها نهر الفرات العظيم ليمنحها زناراً من الخضرة والرقّة معاً وكانت ربما لهذا السبب العاصمة الصيفية لهارون الرشيد، لم تستقل الرقة إدارياً كمحافظة إلا زمن الوحدة، لتأتي لاحقاً مشاريع بناء سد الفرات واستصلاح الأراضي، بالتزامن مع الاكتشافات النفطية، فتحولت إلى عاصمة اقتصادية، وإن لم تأخذ تلك المدينة حقها من هذا التحول الكبير، ولم تستفد من ريعيته أيضاً.

في هذه المدينة بدأ منذ عام تقريباً تحول أكبر باتجاه الفعل الثقافي، مع أننا ندرك تماماً أن النشاط الثقافي لا يمكن أن يكون ربحياً، إلا أن نتائجه على المدى البعيد سوف تنعكس استثماراً بشرياً في وعي وفاعلية الأجيال القادمة، وفي دينامية علاقاتها، مع التأكيد على أن هذا التحول لم يأت بقرار مركزي أو إداري، بل هو نشاط خاص بمديرية الثقافة، يتكىء على دعم وتجاوب كل الفعاليات المدنية والاجتماعية في هذه المحافظة، بدءاً من المحافظ أحمد شحادة خليل وانتهاءً بالمثقفين، مروراً بكل التشكيلات الاجتماعية والعشائرية التي تتبارى في تقديم الوجه الايجابي لها، وجه دعم المشروع الثقافي، ودعم التحولات الايجابية في هذه المنطقة.

ربما تكون الندوة الدولية لحوار الحضارات التي أقيمت ما بين 25 و30 آذار/مارس المنصرم في عاصمة الرشيد، تتويجاً لهذا التحول، بقيمتها المعرفية، وأهميتها في سياق السجال السياسي والثقافي الراهن، مع أنها لم تلق الاهتمام الإعلامي المناسب بالقياس إلى ما يُكتب أو يُنشر ويبث يومياً عن تظاهرة «حلب عاصمة الثقافة الإسلامية».

هذه المقارنة لا تنطلق من فراغ، لأن هاتين الفعاليتين تزامنتا في لحظة الانطلاق تقريباً، وإن استمرت حلب في احتفالاتها عاماً كاملاً. إلا أن النشاطين ينطلقان من ذات البواعث، ويصبوان إلى ذات الأهداف، إذ يشكلان تحركاً للاقات المتغيرات في السياسة الدولية ما بعد أحداث أيلول/ سبتمبر، والتي وضعت المنطقة العربية والإسلام معاً في خانة الإرهاب، وما تبع ذلك من تداعيات على مختلف الصُعد السياسية والاقتصادية والعسكرية، وتعبيرات كل ذلك أيديولوجياً وثقافياً.

إلا أن هذين النشاطين يتباينان في الرعاية والتمويل وفي الطابع العام لكل منهما. فعلى حين انطلقت «حلب عاصمة الثقافة الإسلامية» بقرار من منظمة المؤتمر الإسلامي، ورعاية المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم، ونظيرتها العربية، مع تمويل محلي شاركت فيه الحكومة السورية بقيمة 100 مليون ليرة سورية، ومثلها من محافظة حلب، إضافة إلى 70 مليونا من وزارة الأوقاف و10 ملايين ليرة رُصدت من وزارة السياحة لحفل الافتتاح فقط.

بينما لم تتمتع ندوة الرقة بأي دعم مركزي باستثناء رعاية المحافظ أحمد شحادة خليل المشكورة، واحتضان أهلي ومدني كبير لهذه الندوة وضيوفها.

بالمقابل نجد أن فعاليات «حلب عاصمة الثقافة الإسلامية» ركزت على الجانب الاحتفالي، مع ثماني ندوات دولية تتوزع على مدار عام 2006، إلا أنها لم ترق لمستوى ندوة الرقة، إضافة لبعض المحاضرات والمعارض وطباعة عدد من الكتب، وفي مجمل النظرة لهذه النشاطات نجد أنها تنطلق من رؤية ماضوية لمدينة حلب، كتراث عمراني ورصيد ثقافي وفني، قائم على التسامح الديني والاعتراف بالآخر ضمن إطار الحضارة الإنسانية الشاملة، بينما ندوة الحضارات امتازت في محاولة التأسيس لإعادة طرح علامات استفهام اللحظة، وتأسيس منطق الحوار حولها باتجاه فهم مستقبلي، وإن تباينت وجهات النظر حول هذا الموضوع وزواياه.

الندوة الدولية لحوار الحضارات أقيمت على ست جلسات مسائية وبمشاركة 21 باحثاً ومحاضراً جاؤوا من ثقافات وانتماءات متباينة، من فرنسا وتركيا ومن العراق وتونس ومصر وفلسطين إضافة لسورية، توزعوا على محاور ومواضيع، لكنها في كل الحالات حاولت أن تؤكد على ثقافة الحوار، الحوار مع الآخر والحوار مع الذات، كما قال الأستاذ حمود الموسى مدير ثقافة الرقة في تقديمه لهذه الندوة الدولية، مؤكداً على أهمية الحوار في فتح سبيل جديد أمام خبرة إنسانية تغني الجدل وتثري العقل وتطرح آفاقاً ملحة أمام شعوبنا لتعيد صياغة نظمها السياسية والاقتصادية وبناها الثقافية، كي ترقى بإنسانها إلى مستوى المواطن الذي يستطيع أن يقول كلمته كخطوة أولى لتأسيس خطاب جديد. كثير من الملاحظات خلصت إلى هذه النتيجة مع أنها تباينت معها في التبريرات والمنطلقات، فالدكتور بسام بليبل من سورية طالب بالحوار الداخلي عربيا ـ عربياً أو محلياً في كل دولة على حدة، لتحويل الرعايا عبر الممارسة الديمقراطية والحوار إلى مواطنين قادرين على الصراع مع الآخر، لكن الأستاذ بليبل طالب بهذا الحوار بديلاً عن الحوار مع الحضارة الغربية المتمثلة بأمريكا ذات الرؤية الأحادية والثقافة والسياسة الأحادية التي ترفض الاعتراف بالآخر، لذلك هو يعتبر الدعوة لحوار الحضارات دعوة غير موضوعية يستعيض عنها بتقوية الداخل ـ عبر الحوار والديمقراطية وتنمية حس المواطنة من أجل الصراع مع تلك الحضارة الغربية.

هذا الطرح وجد تأسيسه المنطقي والمعرفي عند الكثير من الأكاديميين المشاركين في هذه الندوة، فالدكتور غسان علاء الدين من جامعة تشرين /سورية يؤكد أن مصطلح الحوار هو تكتيك تلجأ إليه الحضارة القوية كي تصل عبره لمآرب واقعية على الأرض، فإذا تمكنت من تنفيذ أغراضها من خلال استخدام ذلك التكتيك شرعته نظرياً، وإلا فإنها تستبدله بصراع علني ومكشوف في مواجهة الحضارات الأخرى. هنا تزاح الصورة الأخلاقية التي يتقنع خلفها الحوار لتفسح مكانها للصورة السياسية والاقتصادية التي تتجسد فيها القوة السافرة في إطار ومقولات الصدام أو الصراع الحضاري.

لذلك يدعو الدكتور علاء الدين إلى رفض الحوار مع تلك الأمم التي تسعى لاستعبادنا، ولا بأس لو وجد حوار فيما بين الدول العربية والإسلامية التي يجمعها تاريخ مشترك، وثقافة مشتركة. كما طالب بداية بإعادة النظر في المقولات التي ترفعها الأمم والحضارات شعاراً لها، كالحوار والصدام والصراع من حيث إمكانية تعيّنها في الواقع الذي تباشره، متجاوزين دلالاتها النظرية الخادعة، والتي بمجرد أن نقف عندها ـ نكون قد ساهمنا من حيث لا ندري ـ في التآمر على الواقع المعاش، لمصلحة مفاهيم نظرية تنطوي على جملة من الأوهام ليس إلا.

وإن كان الدكتور علاء أطلق على محاضرته عبارة «وهم الحضارة» ذلك الوهم الذي لم يبتعد عن إطاره الدكتور طيب تيزيني من جامعة دمشق، الذي رأى في أحداث أيلول (سبتمبر) فعلاً أمريكياً داخلياً، والنظام العالمي الجديد نظاماً اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً يسعى لابتلاع الطبيعة البشرية وهضمها وإنتاجها سلعاً.

ويتابع الدكتور تيزيني «ان الاتجاه الحاسم الذي يتحرك وفقه صراع الحضارات راهناً هو المحور الديني، باعتبار النظرة الأمريكية عند هنتنغتون للحضارة تساوي مكونها الديني، وهذا الاستنتاج يقود هنتنغتون في كتابه صراع الحضارات إلى استهداف كل من الحضارتين الإسلامية والصينية».

المنظور نفسه يحكم قراءة الدكتور عبد الحسين شعبان /العراق إلى «حوار الحضارات في ضوء العلاقات الدولية الراهنة» حيث استعاد الموضوع في علاقته مع مفهوم الإرهاب الدولي والقرارات الدولية التي شرعت ما بعد أحداث أيلول/ سبتمبر لآليات مكافحة الإرهاب باعتبارها معركة أمريكية بامتياز ضد ما يمكن أن يشكل تهديداً للولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الإمكانية تنطلق من رؤية أيديولوجية مسبقة تعتبر أن الإسلام خطر حقيقي لأنه يحض على الإرهاب، ولا بد من القضاء عليه باعتباره العدو الأساسي بعد انهيار الشيوعية».

ثم تطرق لانعكاس هذه السياسة على حالة حقوق الإنسان والحريات المدنية والتي دفع فواتيرها السلبية ـ بشكل خاص ـ العرب والمسلمين نتيجة إجراءات تعسفية للغرب، والتي تنطلق من تفرد في الهيمنة الأمريكية على القرار الدولي مقابل استخفاف بالرأي العام وحتى بالقوانين الدولية.

«هل يمكن لحضارة يعترف الجميع بنكوص نخبها جميعاً إلى نفي إمكانية الحوار بين أبنائها أن تطالب غيرها بالحوار؟» هذا هو السؤال الأساسي عند الدكتور أبو يعرب المرزوقي من جامعة تونس الأولى، والذي سعى لتحديد أطراف الحوار وشروطه، إذ يحلل بلغة إسلامية عناصر التدافع وعناصر الحوار في مكونات هذا الواقع الإسلامي ونخبه التي لا يتردد عن وصفها بالنفاق، ثم يؤكد على تلازم عمليتي الحوار والتدافع باعتبارهما من السنن الإلهية التي تؤيدها التجربة التاريخية، لكنه يعيد تأكيد أولوية للحوار والتدافع الداخلي كشرط للتدافع والحوار الخارجي ليتمكن المسلمون من لعب دورهم التاريخي، لأنه لا يمكن للمسلمين أن يحاوروا أحدا دون الحوار فيما بينهم لتحرير أنفسهم وأمتهم، حتى تصبح قادرة على المشاركة في التدافع الكوني بالحوار وبكل الوسائل البديلة عنه في مسيرة البشرية نحو تحديد آفاق وجودها المقبل».

الدكتور محمد السعيد إدريس من مصر وهو خبير في مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ينطلق في قراءته للنظام العالمي الجديد من مقولة «إن ما تهدف إليه الولايات المتحدة الأمريكية ضمن مشروعها الإمبراطوري هو فرض السيطرة والهيمنة على الشرق الأوسط، وبما يضع نهاية حقيقية لأي فرص لحوار حقيقي ومشترك» وفي ضوء ذلك يقرأ مشروع الشرق الأوسط الكبير باعتباره مجالاً للهيمنة الأمريكية والإسرائيلية ويستنتج عبثية الحوار المفتوح أو المحكوم بطرف واحد يفرض شروطه أو أطراف أخرى متلقية عليها أن تنخرط في تلك المنظومة المتكاملة من القيم والمفاهيم التي تحملها أيديولوجيا العولمة وفق المنظور الإستراتيجي الأمريكي».

ويضيف «ان حالة العرب والمسلمين في الاندفاع وراء دعوة حوار الحضارات كانت أشبه بحالة استجداء القبول من طرف آخر لا يعرف غير إملاء الشروط». ثم يؤكد على أهمية الحوار الفاعل مع الذات العربية والإسلامية وإعطائه الأولوية على الحوار مع الآخر.

الانطلاق من فهم العلاقة بين الحضارات باعتبارها حصيلة توازن قوى، كان يحكم جلّ المحاضرات السابقة، ويؤدي إلى رفض مقولة حوار الحضارات بانتظار ديمقراطية داخلية، أو بانتظار مشروع نهضوي إسلامي يعيد بناء القوة التي تؤهل للدخول في علاقات صراع أو حوار للحضارات، حسب مقتضيات اللحظة، وهو ما تابع فيه المفكر المصري الدكتور حسن حنفي معتبراً أن صراع الحضارات أو حوار الثقافات، ومصطلحات نهاية التاريخ والعولمة والمجتمع المدني وحقوق الإنسان «كلها مفاهيم موجهة، غير بريئة، في ظاهرها الفكر وفي باطنها السياسة». ثم يقول «الصراع الآن لم يعد بين نظم سياسية وقوى اقتصادية بل صراع حضارات والمتفوق في السياسة والاقتصاد يكون متفوقاً بالضرورة في الحضارة».

وحتى عندما يعرض الدكتور حنفي لبعض المظاهر الإيجابية لصراع الحضارات،إنما يعتبرها مسألة ظاهرة فحسب، ولا تهدف إلا لخدمة الغرب في المركز أكثر منها لصالح شعوب الأطراف، ومن ذلك أن حقوق الإنسان الفردي تعمية وغطاء لانتهاك حقوق الشعوب، ثم يتساءل عن الثقافة العربية التي روجت للمفاهيم السابقة حول العولمة وحقوق الإنسان والمجتمع المدني بعد أن تلقفتها من الغرب، أين هي من أجندتها الخاصة وما هو موقفها من قضايا التحرر العالمية؟

أين هي قضية الوحدة وهم يخططون لتفتيتنا لتصبح إسرائيل الأكبر والأقوى؟ وجملة أخرى من علامات الاستفهام التي تفضح زيف وأحادية تلك المفاهيم.

حتى الدكتور رشيد الحاج صالح من جامعة حلب /سورية ينطلق من السؤال «هل التحديات الداخلية، أي الفقر والبطالة وانعدام الديمقراطية، هي التي أدت إلى التحديات الخارجية، تحديات عرض المصالح والسيطرة، أم العكس؟».

ويذهب الدكتور صالح في استنباط جوابه إلى أن مقولة صراع الحضارات التي أطلقها هنتنغتون في تسعينيات القرن الماضي والتي ترسّم الدول العربية والإسلامية كبؤرة إرهاب لأسباب ديمغرافية، ونتيجة الفقر والبطالة والفساد، مضيفاً ـ أي هنتنغتون ـ أن الدين الإسلامي في طبيعته يحض على العنف، وهنا يتهم الدكتور الصالح الغرب بالاحتيال الأخلاقي، إذ يتستر بالدوافع الأخلاقية ليبرر استخدامه للعنف، مدعياً الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، فيما المعادلة بالنسبة له أن الأقوياء يميلون إلى الصراع وأن الضعفاء يستنجدون بالحوار، وبالتالي على هؤلاء الضعفاء أن يتخلصوا من ضعفهم أولاً وبالتالي من تحدياتهم الداخلية ليتمكنوا من مواجهة التدخل الخارجي ومنعه من تحقيق أهدافه. ولم يخرج الدكتور فائق بولوط عن هذا الفهم، حتى وهو يقدم لحديثه عن الاستشراق بالقول: «ان من لا يتعلم من التاريخ، سيعيشه مرة أخرى» وبالتالي إذا لم نفهم الاستعلاء الغربي والتعجرف الأمريكي اللذين يواجهاننا فإننا سنظل نجتر ذلك مراراً وتكراراً والشاهد على ذلك عدم اعتذارهم عن الكاريكاتير الذي أساء إلى الرسول الكريم... بحجة حرية التعبير عن الرأي، مع أن مفهومهم لهذه الحرية قاصر، كذلك مفهومهم للديمقراطية التي هي مشروع متكامل في الثقافة والمجتمع بينما الغرب حصرها في حقل السياسة، بغية استخدامها كمبرر لعدوانه المستمر على الشعوب الأخرى.

وأشار بولوط الى أن الأصولية الدينية متعددة، ولا تقف عند دين واحد، فمنها الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية والأصولية اليهودية، وهذه الأصوليات بخلاف ما تدعي تهتم بالحياة الدنيوية أكثر من اهتمامها بالحياة الأخروية. وهي جزء من الإمبريالية العالمية. لكنه ورغم مفهومه حول المركزية الأوروبية التي تقزم الآخرين وتنظر إليهم بازدراء، إلا أنه اعترف بوجود آخرين في الغرب يتقبلوننا حواراً ومعرفة، ولا بد أن نحاول عبر المعرفة والتفاهم والتآخي أن نوسع الدائرة لتتسع لحوار حضارات حقيقي بين الشعوب.

تداعيات

روح راشيل كوري «البدوية الأمريكية» تحلق في مسرح لندن

خالد الحروب*

■ كأنما يُحظر على الألم الفلسطيني أن يتواجد على مسارح نيويورك، إذ ينقض أحد مسارحها عقداً بعرض مسرحية «إسمي راشيل كوري» - My Name is Rachel Corrie. تعود المسرحية إلى بريطانيا حيث أعدت وولدت ومثلت. إن مات الضمير في الفن فتلك نهاية النهايات. قد ينتهي في السياسة، وقد ينتهي في المال، وقد ينتهي كل مكان، وربما قد انتهى جله فيها جميعاً. لكن أن يموت ضمير الفنان، والشاعر، والروائي، فهو الكارثة الإنسانية الحقيقية ... ولحسن الحظ لم تقع بالكامل حتى الآن!

عدل الصوت الذاوي لأنين الضعيف أعلى وأحد مضاءً من قرقعة سلاح القوي. لهذا يتوتر القوي في كل حال ومكان ينبس فيه الضعيف ببنت ألم. ظلام مسرح ما خضع لصوت المجرم في نيويورك بدده أنين الضحية العادل في مسرح آخر في لندن، حيث عرضت المسرحية. صدأ قلوب اصحاب الفن هناك، عوضته نصاعة قلوب نظراء لهم هنا.

آلان ريكمان المخرج والممثل البريطاني المسيس هو صاحب الفكرة وهو مخرج المسرحية. يقول: أردنا أن نعرف ما الذي دفع فتاة بمثلها وفي عمرها لتتحدى نمط الحياة الاستهلاكية المحيط بها وبمثيلاتها في حياتها الهانئة في أمريكا. ما الذي قادها لأن تتسيس وتبحث عن مناصرة العدل. غاص ريكمان في 184 صفحة من يوميات ورسائل راشيل كوري لذاتها ولوالديها ولأصدقائها، ورسم باقتدار سجله له كثيرون هنا خلاصة الشخصية التي تعرف عليها من خلال ممثلة مبدعة، ميغان دودس. هذه مسرحية مسيسة والتحدي الذي خاضه ريكمان تجسد في نقل ما كانت تهجس وتفكر به راشيل كوري كما هو للمشاهد، عن طريق إطلاق نصها، وتركه يتحدث، من دون إدخال شخصيات أخرى على المسرحية يمثلون شهود عيان رافقوا راشيل في حياتها أو قبيل استشهادها. ساعة ونصف وميغان تتوحد بإبداع في شخص راشيل، فتُضحكنا، وتبكينا، تشاركنا أحلامها الصغيرة، وتتسلل إلينا بطموحاتها الكبرى لتغير العالم. انتزع المخرج والممثلة المبدعة والمسرح الذي أنتج العمل تحية العدل الإنساني والتضامن ضد الظلم كيفما وحيثما توحش.

هي إذن الشهيدة الملاك راشيل كوري. نتعرف على روحها عن قرب: عاشقة للتمرد، للتنقل، لمساءلة ما حولها. يتذكرها أصدقاؤها إذ كانت تحيد عن القطيع: تتوقف، تتأمل، ثم تنتقد ما تراه عالية الصوت والنبرة. من يوم كانت في العاشرة من عمرها تفجرت الأسئلة من حولها، فكتبت وتساءلت: كيف ولماذا يموت آلاف الأطفال الفقراء ممن هم في عمرها، فيما هي وأقرانها يفيضون بالحياة والرفاه. ما فتئت تقارن رتابة حياتها الوردية في غرفتها المزركشة محاطة بوالدين دافئين في مدينة أولمبيا الأمريكية، بحياة ناس هناك وراء الحدود يريدون مساعدتها.

تتخطى عتبة العشرين من العمر وهي تحمل كل طموحات الشباب، تريد أن تجعل العالم أكثر عدلا وجمالاً وأقل فتكاً وقتلاً. نتأملها على خشبة هذا المسرح اللندني تقرأ يومياتها، وتتأمل في فضاء لانهائي، تقول: علي أن أذهب إلى حيث يعاني الناس، أن أعيش معهم، أن أشعر بهم، وأن أقول لهم إننا نختلف عن سياسيينا وعن عسكريينا وفي قلوبنا ضمائر وحزن وتضامن معكم. كيف يمكن أن يضحي أناس في فلسطين ويستخدموا أجسادهم دروعاً بشرية، وأنا هنا أصنع دمى أرانب وأتوه بسخافات حياتي؟ ذهبت هناك قدمت جسدها درعاً بشرية، عمدت أرض رفح بدم إضافي، وعادت إلى السماء.

كل نشاطها ضد الحرب وضد سياسة حكومتها لم يعد يشبعها في مدينتها، حيث ولدت وعاشت، وبدأ تيقظها. التقطت رسالة من صديق لها جاء إلى غزة وكتب لها يجب أن تأتي لتري ما رأيت: لن تصدقي.

قررت للتو وطارت راشيل كوري إلى رفح لتعانق أطفالها بعد أن تعرفت على «حظر التجول» و«نقاط التفتيش» و«الدبابات». هناك طالت قامتها: قديسة تمارس تمردها وبداوتها وغضبها الإنساني الفوار في وجه دبابات التوحش وبلدوزرات الموت. ترزع جسدها اليافع في أرض رفح ما بين البيت المهدد بالتدمير والبلدوزر الذي يجرف الحياة ويرص الموت على أنقاض البيوت. اللحم الطري يحاول إيقاف البلدوزر المتقدم، وصوت راشيل في مكبر الصوت يصرخ توقف توقف توقف. عيون المجرم القابض على مقود البلدوزر تخترق عيون راشيل، هذا الملاك البدوي القادم من عمق جوهرنا ليعلن أن لا تكافؤ بين لحم الأطفال وفولاذ الدبابات.

كان يغيظها دوماً وأبداً أن يوصف صراع الفلسطينيين مع أعدائهم وكأنه صراع أنداد. هتفت ضد الظلم الذي يتعرض له أطفال فلسطينيون بلا ذنب. في قلب لندن الباردة وطوال أسبوعين، عادت روح راشيل كوري إلى الحياة. في كل ليلة كانت روحها تهدهدنا على مدار ساعة ونصف ينبعث فيها ألق للحياة انفلت من قدر الموت المحتوم على ناصية بلدوزر بشع. ها نحن نتسلل إلى يومياتها فننبش في ضحكاتها وخططها وبدايات مشوارها في بيتها ومدرستها ورغبتها في أن تصبح كاتبة، وهوسها بتسجيل يومياتها وتفاصيل مشاعرها، ثم عادتها في أن تكتب قائمة بما تريد أن تعمل في اليوم والأسبوع والسنة والحياة. تعود إلينا، أو نعود إليها، بعد سنوات ثلاث على رحلة روحها التواقة للتنقل، تقول: أشعر بأني روحي بدوية، لا تستقر.

تسجل في يوميات رفح رغبتها في أن تذهب لمصر أو دبي لتتعلم العربية وتوفر بعض المال، ثم تعود إلى فلسطين. صارت فلسطين رغبة ولعنة في نفس الوقت، تقول: سأشعر بالذنب الكبير إن غادرت هذا المكان وتركت الموت يحصد هؤلاء الناس المدهشين. في دفتر يومياتها في رفح، وفي رسائلها الإلكترونية إلى أمها، تنقل راشيل تفاصيل الموت المحيط بالفلسطينيين لرأي عام غربي لا يعرف شيئا مما يحدث فيتضامن مع المجرم عوضا عن الضحية. يوماً بيوم ترصد: اليوم على حاجز رفح، الساعة الثانية عشرة والنصف، خمس نساء وأطفالهن، الجنود الإسرائيليون يتهكمون عليهن، يبقونهن ساعتين ونصفا، الأولاد يبكون، الشمس حامية. بعد ساعتين يسمحون لهن بالعبور. الطابور صار أطول. الجنود يجلسون ويشربون الشاي ويقهقون، الطابور الفلسطيني يصير أطول.

تسكن مع عائلة فلسطينية في رفح مقيمة في بيت مهدد بالتدمير. غرفتان من البيت لا تستخدمان بسبب ما لحقهما من قصف. العائلة الكبيرة تنام في غرفة الوالدين. راشيل تنام على الأرض مع إحدى بنات العائلة الصغيرات. تكتب لأمها: أشعر بالضيق وبكوني عبئا على هؤلاء الناس. يدهشونني بصمودهم وأخجل من لطف تعاملهم معي واهتمامهم بي رغم أنهم محاصرون بالموت في كل لحظة. إن بقوا في بيوتهم قد تحصدهم البلدوزرات، وإن خرجوا منها تنتظرهم الدبابات. هذا قدر رفح الواقفة على الحدود، يسجنها السجان وراء جدار ارتفاعه إثنا عشر مترا. كل ما آمله هو أن أستغل «بشرتي البيضاء» وكوني أجنبية فأحرج الدبابة والبلدوزر الإسرائيلي فلا يقوموا بقتل الناس وهدم بيوتهم. أملها داسه البلدوزر.

في رد على رسالة إلكترونية لصديق لها يسألها عن أخبارها وكيف هو الوضع في فلسطين مستشيراً إياها بالقدوم تمازحه وتغريه بالقدوم، ثم تقول له: لا يمكنني وصف الوضع هنا بالكلمات، لا يمكن أن تعرف ذلك إلا بالعيش فيه: فتعال هنا، تعال هنا، تعال هنا، وكتبت تعال هنا عشرات المرات! هو صوت العدل النقي الطالع من فلسطين ومن القلوب النقية لكل العالم.

* كاتب واعلامي من فلسطين يقيم في لندن

رواية مصرية في رثاء دور المثقف العربي

■ القاهرة ـ رويترز: تنطلق رواية «مقاطع من سيرة أبو الوفا المصري» من الحنين الى زمن اخر كما ترثي دور مثقفين أدمنوا لعبة التحول والتواطوء. ورواية الكاتب المصري المقيم في موسكو أشرف الصباغ تبدو كأنها مدفع متعدد الطلقات حيث تحتشد بأسئلة عما تعتبره مأزقا تاريخيا يتحالف فيه فساد الانظمة العربية الحاكمة وتواطؤ المثقفين وغياب الجماهير وقلة حيلة المثقف الملتزم الذي وصفه المفكر الماركسي الايطالى أنطونيو جرامشي بالمثقف العضوي. وتعيد الرواية الاعتبار الى من تعتبرهم رموزا مثل جرامشي (1891ـ1937) والروائي الماركسي الفلسطيني اميل حبيبي (1921ـ1996) مؤلف «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» الذي تحتفي به الرواية باعتباره «مواطنا يدخلك الى عالم الحكايات الفلسطينية. يغزل ثوبا من التاريخ بالكلمات. يحوله الى كائن حي وقبس من نور. يروي الذاكرة فتنمو وتترعرع وتظل في حراك دائم».

ويمكن قراءة الرواية من الاهداء الى ولدي المؤلف ايزيس وادم «لعلهما يدركان حجم الكارثة المقبلة والامل المؤجل».

وصدرت الرواية بالقاهرة عن مكتبة «الدار للنشر والتوزيع» وتقع في 175 صفحة متوسطة القطع. وتبدو الرواية بانوراما للجمال والقبح في اللحظة التي يريد البطل تجاوزها ولو في خياله عبر استعراض ما تركه كتاب لهم بصمة في الادب العالمي ومنهم الروسيان نيكولاي غوغول وفيودور ديستويفسكي. كما تقارن بين مصائر بعض أبطالها وأبطال أعمال أدبية كلاسيكية عانوا من صدمة حضارية وتأرجحوا بين الانتماء للشرق أو الغرب كما عبر عنهم الطيب صالح في رواية «موسم الهجرة الى الشمال» والمصريون يحيى حقي في رواية «قنديل أم هاشم» وبهاء طاهر في رواية «الحب في المنفي» وتوفيق الحكيم في رواية «عصفور من الشرق».

ولان الرواية ليست تقليدية فأحداثها لا تسير في خط مستقيم يبدأ بنقطة وينتهي الى أخرى. فهناك قسم كبير يدور في روسيا حيث يقيم مؤلفها. ومن هناك يرصد مشهدا لتحولات بعض المثقفين حيث كان أحدهما شيوعيا ثم «تطور فأصبح بعثيا... وأدرك أيضا أن الله يغفر لمن يشاء فأصبحت العشر الاواخر من «شهر» رمضان ملجأه ومبتغاه».

وبدلا من أن تنتهي الرواية نهاية «تقليدية» فان الصباغ يضيف فصلا عنوانه «هلاوس» يكاد يكون تسجيلا لمشاهدات ومحاورات يؤرخ لها بعام 1990 ويدور فيها جدال بين عرب وروس في موسكو حول سلوك الرئيس العراقي السابق صدام حسين حين غزا الكويت اضافة الى مراسلات بعضها عبثي مثل رسالة سيدة مصرية من حي الوايلي بالقاهرة الى الرئيس الامريكي جورج بوش تشكو اليه خلو البيت من الاطباق والمكانس وانضمام زوجها الى المظاهرات وخطورة مداخل شوارع بورسعيد وسكة الوايلي. كما يقارن هؤلاء المثقفون بين عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني الذي اعتقلته تركيا في عملية استخباراتية عام 1999 وحكم عليه بالسجن مدى الحياة والثائر التاريخي سبارتاكوس قائد ثورة العبيد الذي قتله الرومان في القرن الاول قبل الميلاد. وتسخر الرواية من اعتبار سبارتاكوس «ارهابيا». وعلى الرغم من ذلك لايزال مسرح البولشوي يعرض باليه سبارتاكوس أحد أعظم أعمال الباليه في القرن العشرين».

وللصباغ أكثر من 15 كتابا بينها رواية وأربع مجموعات قصصية اضافة الى ترجمات عن الروسية منها «السرد والمسرح» و«الادب الروسي في السنوات العشر الاخيرة» و«الابتزاز الصهيوني والهم الانساني».

النخلة عالية

عبدالسلام العجيلي*

والعراجين
أسرفت في دلالها
وأنا...
جائع ومتعب
... مثل مهرة
مجنونة...
ركضت...
نحو صدري
كم كنت غبياً
عندما تركتها
وحيدة بين
مخالب السراب
غناؤها همس
أسكر الروح
فهداها...
إلى طيش بهيج

الصباح الجميل
يتكئ على
قامتك العسلية
وأنت كما أنت
كما الورود
في حقولنا المنسية
فكيف أهرب
بكل هذا الجوع
والصباح الجميل
لا يتسع...
لكل الكلام

كل عام وأنت

الآن...
وقد توّجتني أنخابك
سلطاناً على
عرش الكلام
فاسمحي لي..
أن أطلي أظافرك
بدمي...
الذي جفقته الحروب
لك الليلة
أن تتبرجي
خذي
زينتك أنّى شئت
فهذا الليل بأسره..
لي وحدي..
أنا...
من رسم نجومه
ودعوته... ودعوتك
كي نشرب
حتى الصباح
لا أقبل الأعذار
لا تقولي...
سرقت الريح أجفاني
فرّت الحناء
من قدميّ
فقط علميني

كيف...؟
أكون جديراً
بكل هذه السرة
وأمهليني قليلاً..
حتى ينضج...
الشتاء
عواءه في مفاصلي
وتنشغل...
الريح عنّي
ويشتعل...
عشبك الأشقر
المطور بسمرتي
ثم افتحي ذراعيك
وخذيني إليك
برقاً...
يضيء فاكهتك
رعداً...
يهزّ أرخبيلك
مطراً...
يعد وردك
بحمرة لا تخون صباحها
لأنك خميرة جنوني
فأي رجلٍ الليلة يشبهني؟!
وأي سريرٍ يحتويني؟!
الليلة لن أترك
الشوارع بلا أماني
سأؤثث الأرصفة بالأصدقاء
والشرفات بالمواقيت
وأنتظر..
حتى يغسل
الفجر ركبتيك
وينهض النخل
باسقاً كل عام.

لعبة

(الخلاء موصد)
ولعاب الشمس
مهدور...
فلماذا لا ألعب !؟
ولماذا لا أرسم قوساً !؟
يمتد من درنة
وحتى الضفة الأخرى
قوساً...
يحمل كل الألوان
الأحمر... للنعاس
ولزهر الرمان
وللجلسات الحميمة
الأصفر...
يلهب المدرجات
ويشعل السماء
الأزرق...
للأعياد
والبنفسج...
لبنات (الجبيلة) ×
المغرورات
حين يمرقن خفافاً
بعطر...
عصيٍ على الرياح
وببرق...
لا يخذل المحاريث
سوف...
أرسم قمراً
يرش رصيفاً خالياً
من الأحذية
الخشنة والقبعات
البنات فيه يقرأن..
الشعر الحديث
من دون محارم
والأطفال...
يبيعون الياسمين

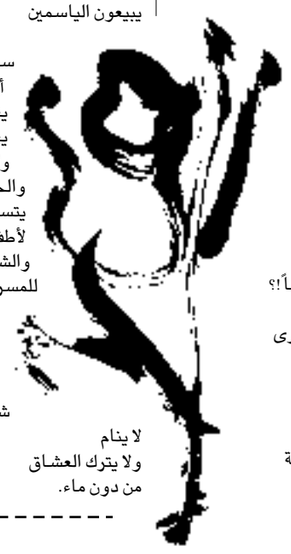

سوف...
أرسم مطراً
يغسل شارعاً
يعج بالمساجد
والكنائس
والحانات
يتسع...
لأطفال المدارس
والشاحنات
للمسرعين... والمبطئين
للسكارى...
والمفلسين
للأثرياء...
والأغبياء
شارعاً...
لا ينام
ولا يترك العشاق
من دون ماء.

* شاعر من ليبيا